٥

تزرعون سبع سنين دأبا

١ ـ تحليل اجتماعى

سنبدأ قصتنا مع يوسف ـ عليه السلام ـ من قصر العزيز ، لنرى نموذجاً من التحلل الاجتماعى والانهيار الأخلاقى فى قصور الطغاة وقتئذ . . شاب فى ريعان صباه فى معزل عن أهله ، بعيد عن توجيههم ، جاء إلى القصر بعد تجربة قاسية من سوء معاملة الإخوة سواء وصل بهم إلى إلقائه فى غيابة الجب وبيعه رقيقاً . . هذا بعد أن يسمع من أبيه بشارة العمر التى أوحاها الله إليه ، حين أخبر يوسف : «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ، وَيُعَلِّمُكَ من تأويل الأحاديث ويُتِمُّ نعمتَهُ عليك وعلى آلِ يَعقوبَ كما أتمَّهَا على أَبَوَيْكَ من قَبْلُ إبراهيمَ وإسحاقَ ، إنَّ رَبَّكَ عليمٌ حكيمٌ» [يوسف : ٦] .

بهذا التراث الروحى جاء يوسف مصر وعاش فى بيت العزيز . فإذا بالشر يأتيه من البيت الذى يعيش فيه . .

فمع الترف الذى كان فيه البيت وأهله انحلال خلقى يبدو بأكثر من صورة :

١ ــ صورة مراودة امرأة العزيز فتاها عن نفسه . . وكان منها بمنزلة الابن .

٢ ــ صورة تخاذل رب البيت فى حسم الأمر ، بعد أن عرف بانحراف زوجه وبراءة يوسف . وكان كل همه أن يكتم آلامه فلا تصل أخبار الحادث إلى المدينة ، واكتفى بأن أمر زوجه بالاستغفار لذنبها ، وأمر يوسف بالصمت والإعراض عن هذا الذى حدث .

٣ ــ صورة استكبار امرأة العزيز مرة أخرى ، وسعيها لجمع نساء المدينة اللاتى سمعن بالقصة وإخراج يوسف عليهن فى محاولة لتبرير ما فعلت : « فَذٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ » ثم إنذار يوسف بالسجن إذا لم يفعل ما تأمره به « ولقد راوَدْتُهُ عن نفسِهِ فاستَعْصَمَ ، ولئِن لم يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا من الصَّاغِرِينَ » [يوسف : ٣٢]

٤ ــ صورة السلطة الباغية التى كانت فى يد امرأة العزيز والتى استطاعت بها أن تلقى بيوسف فى السجن ، وكان كل ذنبه صيانته لنفسه وأهل البيت الذين يعيش معهم . ولم يذكر القرآن السبب الذى من أجله دخل معه السجن : ساقى الملك والخباز . كذلك يعطينا القرآن صورة من صور هذا التجبر الذى يبدو مع سيطرة الترف وفساد الجهاز الحاكم وقتئذ إذا علمنا أن القرآن لم يحدد المدة التى قضاها يوسف فى سجنه ، وإنما قال تعالى : « فَلَبِثَ فى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ » [يوسف : ٤٢] ، فى حين أنه فى أهل الكهف يقول : « وَلَبِثُوا فى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمَائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا » [الكهف : ٢٥] .

ومن الممكن متابعة التحليل الاجتماعى للقصة . . وإنما الذى يعنينا الآن انعكاس هذا على الأوضاع الاقتصادية فى المجتمع ، وغفلة الحاكمين عن النظر إلى مصالح الناس ، وقصر النظر الذى عاشوا به، حتى صرفهم عن التدبير لأمر المستقبل . .

كان مجتمعاً يعيش ليومه : المترفون والحكام فى شهواتهم ، والشعب مضيع يمثله يوسف والذين كانوا معه ، ومن حول الحكام « طبقة » يعطينا القرآن صورة من صور أحاديثها عندما اهتمت بقصة امرأة العزيز مع فتاها . . هذا والمجاعة على الأبواب .

ويصف الإمام ابن القيم موقف يوسف قائلا :

« وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصديق صلى الله عليه وسلم من العفاف أعظم ما يكون ، فإن الداعى الذى اجتمع فى حقه لم يجتمع فى حق غيره، فإنه صلى الله عليه وسلم، كان شاباً والشباب مركب الشهوة ، وكان عزباً ليس عنده ما يعوضه ، كان غريباً عن أهله ووطنه والمقيم بين أهله وأصحابه يستحيي منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم ، فإذا تغرب زال هذا المانع ، وكان فى صورة المملوك والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر ، وكانت المرأة ذات منصب وجمال والداعى مع ذلك أقوى من داعى من ليس كذلك ، وكانت هى المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة ، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التى يزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره ، وكانت فى محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذى لا تناله العيون ، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بغتة ، وأتته بالرغبة والرهبة ، ومع هذا كله عف لله ولم يطعها ، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله ، وهذا أمر لو ابتلى به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله ، فإن قيل : فقد هم

بها ، قيل عنه جوابان ، أحدهما : أنه لم يهم بها ، بل لولا أن أرى برهان ربه لهم ، هذا قول بعضهم فى تقدير الآية . والثانى : وهو الصواب أن همه كان هم خطرات فتركه لله فأثابه الله (عليه) ؛ وهمها كان هم إصرار بذلت معه جهدها فلم تصل إليه فلم يستو الهمان »[١] .

٢ ــ انذار

ويأتى الإنذار الإلهى فى صورة رؤيا يراها الملك : « إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ، وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » [يوسف : ٤٣] .

ونستطيع أن نرى مظاهر متعددة للسلبية فى هذا الموقف : « أفتونى فى رؤياى » ثم رد من حوله « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وما نحن بِتَأْوِيلِ الأَحلامِ بِعَالِمين » [يوسف : ٤٤] .

ويعود القصر إلى ما فيه من حياة يومية عابثة .

وتتكامل بهذا صورة ما فى قصر الملك مع ما فى قصر العزيز . وإذا كان الملك قد أغمض عينه عن حقائق الحياة فى مصر ، أو ألقى الذين من حوله بينه وبين الحقيقة حجاباً ، فإن هذه الحقائق قد لاحقته فى

---

(١) ابن القيم : روضة المحبين ٣١٨ ــ ٣١٩ .

منامه ، وصورت له المصير الرهيب الذى ينتظر البلاد إذا لم يدبر أمرها . . ولم تكن المجاعات غريبة عن مصر من حيث ارتباطها — أساساً — بارتفاع النيل وانخفاضه ، وما يتعلق بذلك من فقر وأعباء جديدة تضاف إلى ما يحمله الشعب من أعباء تنوء بها الجبال . . . ولكن من حول الملك كانوا على شاكلته لا يريدون عملا جاداً . . وهم — حتى فى المجاعة — يستطيعون أن يدبروا أمر أنفسهم فما لهم ولهذه الجموع الشعبية ؟ . . وما لهم والجهد التنظيمى الكبير ؟

٣ — خطّة طويلة

وعندما يتذكر ساقى الملك صحبة السجن ، ويخبر الملك بأمر يوسف يفسر يوسف الرؤيا ويقسمها إلى ثلاث مراحل :

١ — تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ،

٢ — ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ .

٣ — ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وفِيهِ يَعْصِرُونَ . [يوسف ٤٧ — ٤٩] .

وأول ما نلاحظه على هذه الخطة الطويلة التى تستغرق خمسة عشر عاماً ، أن رؤيا الملك فيها تقتصر على المرحلتين الأولى والثانية ، ومدتهما

معاً أربعة عشر عاماً . وأن المرحلة الثالثة لم ترد فى رؤيا الملك ؛ ولذلك كانت من مقام النبوة . وكذلك تفاصيل العمل فى المرحلتين الأولى والثانية .

ولنعرض ملامح هذه الخطة الطويلة :

١ ــ الطابع الغالب على المرحلة الأولى هو : الإنتاج والادخار مع استهلاك محدود . فيوسف حدّد خط الإنتاج بالزراعة وحدد استمرار الإنتاج الزراعى بسبع سنين . . العمل فيها دائب لا ينقطع . ومع هذا الجهد الكبير فى الإنتاج المستمر كان هناك تحديد واضح للاستهلاك يبدو فى قوله: «إلا قليلا مما تأكلون» . وأمر يوسف بحفظ السنابل المخزونة من الغلال كاملة كما هى « فذروه فى سنبله » والسنبلة ــ كما نعلم ــ عند طحنها توجه إلى ثلاثة أبواب رئيسية : الأول طعام للإنسان ، والثانى طعام للحيوان ، ويمكن الاستفادة من قشرها أيضاً فى صناعة الطوب اللبن . فكأن تنظيم الخطة هنا شمل أكثر من جانب من جوانب الحياة فضلا عما فى حفظ السنبلة كاملة من صيانة .

٢ ــ فإذا ما انتهت سنوات الإنتاج السبع ، بما فيها من جهد متصل دائب ، واستهلاك محدود ؛ كان على الخطة أن تقابل تحدياً ضخماً هو توفير الأقوات سبع سنوات عجاف . . وبعبارة أخرى : بعد الإنتاج والجهد الدائب فى المرحلة الأولى سيأتى تحمل أيضاً فى المرحلة الثانية ، وهو تحمل يحتاج إلى تنظيم دقيق يصل فيه الطعام إلى كل فم .

٣ ــ ومع هذا التحمل والتنظيم الدقيق ، ينبغى ألا تأتى السنوات العجاف على « كل » المدخرات ، وإنما كان يوسف واضحاً فى قوله: « إلا قليلا مما تحصنون » . فكأن هذا الجزء المدخر هو « الخميرة » التى تستطيع بها الأمة أن تقابل متطلبات البذر الجديد بعد السنوات العجاف .. إنه إعادة استثمار المدخرات .

أما إذا جاءت السنة المرتقبة بفيضانها المرتفع فلم نجد بذوراً ، فماذا تنبت الأرض ؟ ولهذا لا يمكن أن يتحقق الغوث المنتظر فى المرحلة الثالثة وتتوافر الغلات التى يعصرونها ، إلا إذا كانت الخطة قد استعدت لهذا كله .

كان على يوسف عليه السلام أن يوازن بين ثلاثة جوانب : الأول الإنتاج ، والثانى الاستهلاك ، والثالث الادخار . وأن يعيد استثمار المدخرات .

ومن طبيعة التطور أن تختلف « تفاصيل الصورة » ولكن أساسها سيظل قائماً عميقاً فى ديننا وتراثنا .

٤ ـ العنصر البشرى فى الخطة

ولقد أشارت الآيات الكريمة إلى جوانب أخرى ارتبط بها نجاح الخطة ارتباطاً مباشراً ، وأهمها جانبان يجمعهما عنصر واحد هو العنصر البشرى وعلاقته بنجاح الخطة :

١ ـ الجانب الأول يتعلق بيوسف نفسه ، وفى هذا الجانب نرى أمرين :

أولهما : أنه لم يرض ـ ابتداء ـ أن يعمل فى هذا الأمر وظلال الشك من حوله . فحينما طلبه الملك قال للرسول : « ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ؟ » [يوسف: ٥٠] . ودار تحقيق جديد بدت فيه براءة يوسف . واعترفت النسوة واعترفت امرأة العزيز بهذه البراءة، وأقرت : ذلك « لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ

بالغَيْبِ ، وأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الخائِنِينَ * وما أُبَرِّئُ نَفْسِى ، إنَّ النَّفسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلاَّ ما رَحِمَ رَبِّى ، إنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ ». [يوسف : ٥٢ ـ ٥٣] .

وعندما بدت هذه البراءة وتجلى نقاء يوسف ، قال الملك : «ائْتُونِى به أَسْتَخْلِصْهُ لَنفْسى ، فلمَّا كَلَّمَهُ قال إنَّكَ اليومَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ » قال يوسف «اجْعَلْنِى على خَزَائِنِ الأَرْضِ إنِّى حفيظٌ عليمٌ » [يوسف : ٥٣ ـ ٥٥] .

هنا نجد تطبيقاً سليماً لقاعدة «الرجل الصالح فى المكان الصالح» . وإذا كان يوسف قد طلب إظهار براءته ، فقد كان لهذا أثره العلمى فى توافر الثقة فيه ، والاطمئنان إلى أخلاقه ، وأنه لن يستغل مكانه الذى يسيطر فيه على الأقوات فى محاباة أحد أو البطش بأحد ، أو الانحراف الذى قد يسوق إليه ما فى يد الفرد من سلطة . ولو كان يوسف قد قبل العمل دون إظهار هذه الحقيقة ، لكان من الممكن أن يحاول من حول الملك الطعن فيه ، مستغلين الغموض الذى أحاط بالحادث فى قصر العزيز .

ومن هنا يبدو التكامل القوى بين الخطة والمخططين . بين حساب الأرقام وحساب الأخلاق .. بين الأسس المادية والقيم الروحية فى المجتمع . . بين الدين والحياة .

٢ ـ الجانب الثانى يتجلى فى اختيار المعاونين الذين ساعدوه فى

عمله . فعندما جاء أهله فعرفهم وهم له منكرون ، وجهزهم بجهازهم ، ثم عادوا إليه فى المرة الثانية وآوى إليه أخاه ثم وضع السقاية فى رحل أخيه ، وذهب رجاله يبحثون عن صواع الملك ثم استخرجها من رحل أخيه ، قال إخوة يوسف : « يا أَيُّهَا العزيزُ إنَّ له أباً شيخاً كبيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مكانَهُ إنَّا نَراكَ من المحسنين» فكان رد يوسف : « مَعَاذَ اللهِ أن نَأْخُذَ إلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عنده إنَّا إذاً لظالمون » [يوسف : ٧٨ – ٧٩] .

فكان من رجال يوسف العون الصادق على تنفيذ أوامره بدقة وهدوء .

فهنا نجد انعكاس أخلاق يوسف عليهم ، وضرورة العامل البشرى على مستوى القيادة والمستوى الشعبى فى نجاح الخطة بعد التأكد من صحة أسسها المادية .

ولقد استطاع يوسف بهذا أن ينقذ مصر من المجاعة ، وأن يجعل فى مخازنه من الغلال ما يكفى مصر وما حولها . وحتى فى ظل هذه الظروف القاسية ، لم تكن مصر منطوية على نفسها تقول : أنا وبعدى الطوفان ، وإنما مدت يد العون إلى جيرانها ولم تبخل عليهم بالغلال ، برغم ما كانت تعانيه من ضغوط .

وما أجمل الربط بين الدنيا والآخرة فى القصة بعد الربط بين الأسس المادية والروحية فيها . وفى هذا يقول الله تعالى : « وكذلك مَكَّنَّا لِيوسُفَ فى الأرض يَتَبَوَّأُ منها حيثُ يشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا من نشاءُ ، ولا نضيعُ أجرَ المحسنين . ولأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ

للذين آمنوا وكانُوا يَتَّقُونَ » [يوسف : ٥٦ ـ ٥٧] .

هذه قصة تخطيط حفظها لنا ديننا ، وأنزلها الله على رسوله ، استطاع بها يوسف أن يحل نمطاً من أنماط المعادلة الصعبة ، موازناً بين جوانب الإنتاج والاستهلاك والادخار بما يحقق الخير ، معيداً استغلال المدخرات ، معتنياً فى الوقت نفسه بكل من الأسس المادية للخطة وجوانبها البشرية ، مثيراً حوافز العمل المادى ، مع صيانته بضوابط من القيم الروحية التى تعمل من أجل إثراء الحياة ناظرة ـ فى الوقت نفسه ـ إلى ما بعد الحياة من جزاء ، سجله يوسف فى دعائه :

« رَبِّ قد آتَيْتَنِى مِنَ المُلْكِ ، وعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، أنتَ وَلِيِّى فى الدُّنْيَا والآخرةِ ، تَوَفَّنِى مُسْلِماً وأَلْحقنى بالصالحين » .

[يوسف : ١٠١] .